القدرية والجبرية

المسؤولية

طبيعة فكرتها وكيفية تكونها في النفس

(٣)

كلمة المسؤولية من الكلمات المعقدة الدقيقة . ذلك لان مدلولها ليس شيئاً محسوساً نحيط بجميع نواحيه ونستطيع الوقوف بالدلالة على ظواهره وخوافيه . ولا هو معنى بسيطاً قائماً بالذهن كما يقوم به معنى كلمة الصدق مثلاً . ولكنهُ اثر ونتيجة لاحساساتنا وعقائدنا واعمالنا فيما بيننا و بين انفسنا وفيما بيننا و بين سوانا بل فيما بين غيرنا عن فعول وفسيو وفيما بينهُ و بين سواهُ . فالواحد منا يحس بمعنى المسؤولية ان ارتكب خطيئة امام ربّه وكان متديناً . ويحس بهذا المعنى اذا اساء ظلمةً بغيره من الناس من غير حق . ويحس به ان رأى بائساً يستطيع تقديم المعونة اليه ثم يحجم عن اعانته . ويحس به ولكن على شكل آخر ان هو اوصل الاذى الى غيره . ويحس به على شكل ثالث اذا اتى ابنهُ او اخوهُ او صديقهُ امراً نكراً . يحس بالمسؤولية امام ضميره في الاحوال الاولى وامام الناس ايضاً في الاحوال الثانية . يحس بها ويعتقد ان جميع الناس مثلهم في ذلك مثلهُ ولذلك فهو يحملهم تبعة اعمالهم على نحو ما يظن انهم يحملونهُ تبعة اعماله

ومع تشعب معنى هذه الكلمة وامتدادها فانك ترى احساس الناس به احساس ايمان وتسليم بحيث لا يكاد يتسرب الى انفسهم شك في وجود هذه المسؤولية ولا في كنهها وكيفها . وليس ذلك بغريب فيهم فانهم كانوا ولا يزالون يسرعون الى الحكم على اشد الاشياء دقة واكثرها تطلباً للبحث والنظر بسهولة مدهشة في حين تراهم يترددون اذا دعوتهم للحكم في مسألة بسيطة يكلفهم البحث في كل اجزائها والوصول الى معرفة ما جل وما دق منها . فمسائل الدين كلها : وجود الله . وخلود النفس والعقاب والثواب . والنظريات الاجتماعية والاقتصادية العليا كفكرة العائلة . وحق العقاب . وفكرة الملكية ونحو ذلك — هذه المسائل المعقدة الدقيقة لا تحتمل لديهم مناقشة ولا جدلاً بل هم يرون من السخف النظر والبحث فيها ويطلقون على هذا السخف انواعاً من الاسماء فيسمونهُ التجديف مرة والهرطقة اخرى والسفسطة ثالثة . اما ما انحط الى اسفل من هذه المسائل بدركات فهو

يستدعي تفكيرهم وبحثهم لامكان الحكم فيه ككون زيد رجلاً طيباً او رجلاً خبيثاً . وكون عمل من الاعمال يستحق المدح او الذم . وجمال حيوان او قبحه . وغير ذلك من المسائل البسيطة

وظاهر ان هذا تناقض غريب . لان التردد في الحكم يزداد كلما ازدادت المسألة المطلوب الحكم فيها دقة وتعقيداً . فيجب من اجل الوصول الى حكم مقنع تذليل جميع المصاعب وحل كل العقد واستظهار كل الدقائق حتى تصبح المسألة مجموع مسائل بسيطة تحل كلها على طريقة واضحة مقبولة . فكيف يسوغ اذن حل مسألة دينية او اجتماعية او اقتصادية بكلمة في حين اننا ندقق ونبحث اذا اردنا الحكم في اصغر الامور واضعف الاعمال . افليس هذا هو التناقض بعينه ؟

لو كان صحيحاً ما يقال من ان الانسان حيوان مفكر وطالبنا جميع الناس بالتفكير لكان هذا تناقضاً من غير نزاع . لان مطالبتنا جميع الناس بالتفكير في كل مسألة تعرض عليهم مطالبة بالمستحيل . ولو وقف كل فرد منهم حياته على التفكير لوقف دولاب الاعمال في العالم ووقف بذلك ما يدعو التفكير . وانما يعيش المجموع الاعظم في كل الامم وغذاؤه الفكري الايمان . يعيش على وهم انه فكر ووصل من تفكيره الى نتائج معينة اتخذها قواعد في الحياة في حين انه وجد هذه القواعد محضرة له بواسطة افراد اعدتهم الطبيعية بما وهبتهم من الملكات الخاصة للقيام بوظيفة الفكر في العالم . هؤلاء الافراد يضعون قواعد الحياة لا اعتباطاً ولا نتيجة شهوة من شهواتهم الفكرية بل يضعونها محكومين بماضي الانسانية الطويل . والقواعد التي يضعونها هم او يضعها المتشبهون بهم ولا يكون لها بالماضي لحمة نسب انما هي قواعد ضيقة محكوم عليها مقدماً بالبوار والفناء لان حياتها انما تكون بدخولها في كتاب ايمان العالم . وفصول هذا الكتاب متناسقة فما كان دخيلاً عليها لا يبقى بينها لانها تلفظه وتنفيه

ولا شيء اشد تنافياً مع الايمان من التحليل والتنسيب (ايجاد النسب بين الاجزاء المختلفة من الشيء الذي تحلله) ذلك لان اول ما يستدعيه التحليل والتنسيب هو امكان الشك في مجموع ما تحلله او في نسبة شيء منه لشيء آخر . والشك والايمان نقيضان لا يجتمعان . لذلك كان من اول خصائص الايمان التسليم بالشيء جملة او نفيه جملة

وهذه النظريات الكبرى الدينية الاجتماعية والاقتصادية تستدعي من اجل تناول الفهم اياها تناولاً دقيقاً تحليلاً طويلاً وملاحظة كثيرة يستلزمان الشك المرة بعد المرة حتى

يمكن الوصول فيها الى نتيجة تقنع العقل . وهذا التحليل وهذه الملاحظة هما من شأن المفكر لا الخامل . والنتائج الاخيرة التي يصل اليها المفكر هي وحدات ايمان كل فرد من افراد المجموع بأخذها مقياساً للاعمال التي يستلزمها وجوده في الحياة

هذه الوحدات الايمانية يزداد عددها او يقل بانحطاط الوسط او رقيه وبكثرة المفكرين وقلتهم . فكلما ارتقى الوسط قلّت الوحدات الايمانية وكلما زاد المفكرون امكن المجموع ان يرقى الى مكانة من العقل تسمح له ان يشك في عدد اكبر من النظريات . وهذا هو السبب في «تطور» فكرة البطولة والالقاب التي كانت تُعطى للعظماء والابطال في متعاقب العصور . فبينما كنت ترى لقب الالوهية يطلق على مفكرين وعظماء امثال : اردن ، الاسكندناڤي وامثال الآلهة وانصاف الآلهة الكثيرين الحافل بهم تاريخ اثينا ترى هذا اللقب يضعف ويتلاشى من عالمنا الارضي ، ويبقى وقفاً على الاله الاعظم الذي لا تراه العيون ولا تحيط بكنهه العقول . ويحل محل الآلهة وانصاف الآلهة الذين كانوا يشرفون الانسانية في التاريخ الاول الانبياء والرسل عليهم السلام

وهكذا ترى هذه الوحدات الجليلة التي كانت موضع القداسة والاجلال في الازمان الاول ازمان قصر العقل الانساني يرضى بعضها بالخلود في مستودع الماضي معززاً مكرماً في حين لا تستطيع الاخريات الوصول الى هذا المركز من الاعزاز ويكون كل نصيبها ان تذكر في تاريخ الانسانية كموجود عقلي اخذ دوره على الزمان ثم هرم وتلاشى

وهذه «التطورات» تسير في حصولها على سنَّة معينة . تلك السنَّة هي الضرورة الاجتماعية . فما دامت فكرة معينة لازمة لبقاء الجمعية وتوازنها فهذه الفكرة تدخل حتماً في مجموع الوحدات التي يتكون منها القانون العام لبقاء الجمعية . لهذا كان الناس اكثر ايماناً بما وراء الطبيعة وبالقوى المصرفة للكون حين كانوا يعتقدون لهذه القوى اثراً فعالاً في نزول المطر وفي حركات الرعد والبرق وفي الصواعق وفي غير ذلك مما يؤثر في حياة الاجتماع بالخير والشر . فلما بدت تباشير العلم وابتدأوا يوقنون ان الصواعق والمطر والخسوف والكسوف كلها ظواهر تسير على قوانين ونواميس معينة قل ايمانهم الاول بما وراء الطبيعة واصبحوا يحسون بان الصلات التي كانت تربطهم بتلك القوى تتلاشى شيئاً فشيئاً حتى جاء مذهب الوضعيين (les positiviates) في النصف الاخير من القرن التاسع عشر واساسهُ درس السنن والقوانين التي تحكم الطبيعة وتصرف حياة الاجتماع من غير تعرض

بغير او شر احترام او تحقير للقوى الاصلية التي يقول بعضهم بوجودها في حين ينكرها آخرون انكاراً تاماً

ولهذا ايضاً « تطورت » الفكرة المسيحية في قداسة الزوجية . فبعد ان كانت الزواج عقداً بين شخصين لا انفصام له ما بقيا على اعتبار ان هذه الوسيلة هي الوحيدة التي تضمن توازن الاجتماع تطورت هذه الفكرة بتطاير الزمان و بحكم الضرورة الاجتماعية واضطرت الكنيسة ان تدخل الى شريعتها فكرة الانفصال بين الزوجين . ثم أدخلت القوانين المدنية نظرية الطلاق وكذلك قضي على الفكرة الاولى بعد اذ كانت آية من آي الاجتماع في العصور الماضية . ولقد صاحب هذا التطور في الايمان بفكرة العائلة تطور آخر يختص باعتبار المرأة وتقديرها ذلك انه لما كانت رابطة الزوجية الاولى عقدة لا انفصام لها تقضي بوجود المرء وزوجه معاً طول الحياة عمل في هذه الرابطة قانون الطبيعة العام قانون التنافس وسيادة الاصلح والاقوى فدخل الى النفوس اعتبار المرأة متاعاً للهو الرجل وشهوته وتكونت في النفس الاجتماعية فكرة تحقير المرأة . والنفس الاجتماعية تشمل نفوس الرجال والنساء معاً . لذلك كانت المرأة المسيحية في الازمان الاولى محتقرة في عين الرجل وفي عين نفسها فلما بدأ احساسها بوجودها يتكون بدأت ايضاً فكرة القداسة المطلقة لرابطة الزوجية تتجزأ وتتطاير فلم يبق الا ذكراها في الاذهان والعقول

مثل هذه التطورات حصلت في كل الوحدات الايمانية وهي كما قدمنا النظريات التي يحس بها الضمير العام كضرورات اجتماعية لا غنى عنها لحفظ كيان الجمعية وحسن توازنها والتطور تقدم او تأخر وليس سكوناً لان السكون والحياة لا يجتمعان . اذن فحل كل وحدة ايمانية تتطور تحل وحدة اخرى تصل لتكون جزءاً من مجموع النظريات التي يؤمن بها المجموع . ولكن على مقدار رقي هذا المجموع وانحطاطه يترتب بقاء هذه النظريات جامدة اجيالاً من الدهر او يسرب الشك اليها بين حين وحين

وهذه الوحدات الايمانية تدخل الى نفس الفرد من يوم وجوده وسط الجماعة وتكون معه وتبلغ اشدها متى بلغ هو اشده وتصبح بذلك قسماً منه يسميه الناس ضميره . فضمير الفرد هو انعكاس الوحدات الايمانية اللازمة لحياة الجماعة على نفس الفرد . وهذا الانعكاس يحصل حتماً لان حياة الفرد واغتباطه معلقان على اغتباط الجماعة في حياتها . فهو مكره على احتمال كل ما تتصوره الجمعية من ضرورات الوجود بالنسبة اليها

هذا الانعكاس لقواعد حياة الجماعة في نفس الفرد يكوّن عنده احساساً خاصاً بأن مخالفة هذه القواعد تجر عليه جزاء محتوماً . وهذا الاحساس ناتج من ايمانه بضرورة هذه القواعد لحفظ كيان الجمعية وانه هو قسم من هذه الجمعية يتأثر بتأثرها في جهة الخير او الشر . فلما كانت الجمعية تؤمن بالقوى التي فوق الطبيعة وتعتقدها مصرفة للمطر والبرق والرعد والصواعق انعكس ايمانها هذا في نفوس الافراد واصبحوا يحسون امام هذه القوى بعبودية خاصة تستتبع استرضاء كل فرد لها والاّ حلّ به الجزاء . كذلك لما كانت فكرة العائلة والزوجية احدى وحدات ايمان الجماعات كان هناك في نفس كل فرد شعور خاص بان مخالفة هذه الفكرة يجر حتماً اوصاباً ومصائب لا نهاية لها . وهكذا كانت كل وحدة ايمانية اجتماعية تبعث الى نفس كل فرد نوعاً من العبودية امامها والتقديس لها والاعتقاد بان مخالفتها تؤدي الى بوار كبير . وهذا هو الاساس الذي بنيت عليه فكرة المسؤولية في نفس الافراد

هذا التحليل لفكرة المسؤولية يوضح السبب الذي يجعل هذه الفكرة معقدة ودقيقة . فانها ترتكز على ادق مظاهر النفس الانسانية نعني به الضمير الفردي القائم كما بينّا على اساس وحدات الايمان التي تكونها ضرورات الحياة الاجتماعية . فمن اجل تفهم فكرة المسؤولية يجب تفهم معنى الضرورات الاجتماعية وطريق انعكاسها في نفس الفرد وكيفية تكوينها لضميره الذي هو مصدر احساسه بالمسؤولية . ولما كانت فكرة الضرورات الاجتماعية التي هي اساس كل هذه النتائج تحتاج في تفهمها الى التدقيق وتحليل الوحدات الايمانية وكان هذا التحليل يستدعي افتراضات وشكوكاً تتنافى مع طبيعة الايمان لجأ الاكثرون الى نعيم الاغتباط والاستسلام وضلّ آخرون في تيهاء الشكوك المنطقية وجعلوا يتلمسون لفكرة المسؤولية اساساً غريبة ترجع الى طرق تفكيرهم . فبينا يقول جماعة ان اساس المسؤولية حرية الارادة واختيار الفرد لاعماله في الحياة يقول آخرون انها مظهر من مظاهر الضمير على اعتبار ان الضمير وحدة قائمة بذاتها تخلق مع الفرد يوم يُخلق . ويقول البعض انها فكرة العدالة . ويقول غيرهم انها منعدمة وانما اوجدتها الضرورة الاجتماعية . ويقول غير هؤلاء واولئك اقوالاً يشعر الانسان انها لم تصدر عنهم يريدون بها الوصول لتحليل الفكرة بالذات مخلصين لما يحبهم ولكنها قيلت كمقدمة لغرض ثابت في نفوسهم يريدون الوصول اليه . وذلك شأن الكتّاب الدينيين وشأن بعض علماء القانون الجنائي الاقدمين

وشأن فلاسفة المنطق المجرد · ولكن التعمق في البحث والتحليل واتخاذ الوقائع والحوادث الاجتماعية ومظاهر الوجود الفردي مواضع للملاحظة والاستنتاج تبين لنا ما تحويه هذه الافكار من نقص او خطإ وتدلنا دلالة واضحة ان المسؤولية اثر ونتيجة للقوانين الطبيعية التي تحكم حياة الجماعات وتصرف حياة الافراد فلا وجود لها في الحياة بذاتها · وانما هي فكرة مجردة معلق قيامها على تفاعل هذه القوانين واحداً بعد الآخر طبق النظام الذي سبق بيانهُ

والذي يوضح ما سبق ويؤيدهُ ما نلاحظهُ في العالم الحيواني · فان الحيوانات الانفرادية كالذئاب الضارية والاسود لا يدخل في طبيعة تركيبها شيء من معنى المسؤولية امام الموجودات الاخرى · وادنى ما عندها الفتك بكل ما يقترب منها ولو كان من بني جنسها · اما الحيوانات الاليفة والحيوانات التي تعيش اسراباً فان فطرتها الاجتماعية تدخل الى نفسها شيئاً اشبه ما يكون بالمسؤولية · وذلك ظاهر كل الظهور في بعض الحويات الصغرى اذ يشعر كل واحد من افرادها كأن لهُ حقوقاً على الاخرين وعليهِ واجبات نحوهم · فهناك في خلايا النحل يلاحظ الناظر شبه مملكة يقوم كل فرد من الافراد فيها بعمل خاص يقتضيهِ نظام حياة الجماعة فكما ان وظيفة ملكة النحل[1] التناسل ووظيفة ذكر النحل تلقيحها فوظيفة النحل العامل استجلاب الشمع والعسل لبناء الخلية ولغذائها · وفي كل خلية ملكة واحدة يقوم بتلقيحها ذكر النحل فاذا اتم واجبهُ من ذلك تقتلهُ فاذا صادف وجود ملكة اخرى هناك اقتتلتا حتى تقضي واحدة منها على الاخرى ويبقى النحل العامل امام هذه المعركة الناشبة بين الملكتين متفرجاً لا مدخل لهُ فيها بشيءٍ مطلقاً · ذلك لانهُ يشعر بفطرة الحياة فيهِ ان من الواجب لوجود الجمعية التي هو منها قيام ملكة واحدة في المملكة التي هي الخلية · وهو يشعر ايضاً ان الملكة الغالبة هي الاصلح لحياة جمعيتهِ فيجب اذن ترك الملكتين تقتتلان كما تشاءان حتى تموت احداهما · وكل واحدة من النحل العامل تقدم على الاشتراك في المعركة تلقى من غيرها ما لا تحب · والظاهر ان هذا نوع من الاحساس بالمسؤولية قريب الشبه باحساس جماعة البربر من بني آدم

وما يلاحظ على النحل يلاحظ على النمل · فان طبقاته المختلفة تحس بما عليها من الواجبات وبما لها من الحقوق احساساً مرتبطاً كل الارتباط بحياة الجمعية التي هي منها ·

---

(١) وهي ما يسميهِ العرب اليعسوب وقد اخطأوا اذ ظنوها ذكراً

فالنمل العامل يجدُّ الصيف في اكتناز القوت لنفسه وللاناث التي تعمر القرية . وبعضهُ يقوم بوظيفة تربية ديدان النمل والمحافظة عليها مخافة الخطر . وهو يضحي من اجل ذلك كثيراً من راحته بل قد يضحي حياتهُ حتى لقد شوهد بعض النمل حاملاً ست ديدان ومسرعاً يطلب قرارهُ وذلك رغم انفصام ظهره ولم يشعر بالألم الذي جر عليه حتفهُ الاَّ بعد ان قام بالواجب الذي تطالبهُ به حياة الجمعية التي هو منها

واذا نحن ارتقينا في السلم الحيواني الى درجة اعلى من النحل والنمل تبين لنا ما تقررهُ بشكل جلي واضح . فبعض الحيوانات التي تعيش مع الانسان كالفيلة مثلاً يكون عندها احساس الالفة لشخص دون آخر ويخجل للانسان حين يراها مع صاحبها كأنها تشعر بانها جزء من مجموع المنزل الذي تقيم فيه عليها واجبات ولها حقوق . ولقد بلغ من شعور الناس بذلك حتى قرروا عليها جزاءات توقع حين ارتكابها هفوة من الهفوات كما يوقع الجزاء على مذنب من بني آدم . ومعنى ذلك قطعاً ان هذه الحيوانات تعتبر مكلفة اتباع النواميس التي تكون في النفس السامة اعتقاد ضرورتها للاجتماع

على ان هذا المعنى الذي بيناهُ يتضح ايضاً من اعتبارات الناس لدرجات المسؤولية فان اختلاف الاشخاص في درجات المسؤولية يرجع الى مقدار صلاحيتهم او عدم صلاحيتهم لحياة الجمعية . فالمجرم الذي يُقصى عن الناس طول حياته هو ذلك الشخص الذي ارتكب ما يجعلهُ غير اهل للعيشة بين الناس من قتل او قطع طريق او سطو او نحو ذلك . واما الاشخاص القليلو الخطر على الجمعية فتوقع عليهم جزاءات توازي مبلغ خطرهم كثرة وقلة . وتقدير هذا الخطر راجع دائماً الى ما يقسمهُ الرأي التام من القواعد لحسن نظام الجمعية . وهذه القواعد هي الوحدات الاعتبارية التي وصفناها

ولو انك افترضت شخصاً يعيش عيشة الوحدة منقطعاً في جزيرة يجد فيها ما يعولهُ لما استطعت ان تفترض لهُ شيئاً مما نسميهِ نحن الضمير ولا امكنك ان تتصورهُ شاعراً باية مسؤولية فان كل ما تكلفهُ اياهُ فطرتهُ انما هو الاحتفاظ بحياته فاذا لم يكن على هذه الحياة خطر ولم يكن في المحيطات به ما يطالبهُ مطالبة خاصة بعمل خاص فانهُ يقضي ايامهُ في سكينة البله ونعيم الغفلة راتعاً وسط السعة التي حبتهُ اياها الطبيعة . ولا تحسبهُ حينذاك مفكراً في شيء او حاسباً حساب امر من الامور . ولكن في اليوم الذي يجد لهُ مشاركاً ينافشهُ الحساب ويقول لهُ ذلك لك وهذا لي وكما اعتديت عليَّ يجب ان ادفع العدوان بالعدوان في ذلك

اليوم يبدأ يفكر في طريقة تضمن له طمأنينته الاولى من غير احتياج للنزاع الدائم مع جاره وشريكه . وهذه الطريقة هي قواعد حفظ الامن والنظام . وهي في اساس حياة الجمعية والاصل الذي تبنى عليه في النفس فكرة المسؤولية . فالمسؤولية اثر ونتيجة لحياة الفرد في الاجتماع وليس لها وجود مستقل في نفسه

قد يظن البعض من قولنا ان فكرة المسؤولية يستمد اساسها من الضمير الفردي الذي تكونه الوحدات الانسانية الاجتماعية بانعكاسها فيه ومن ثَمّ الشخص الذي يعيش عيشة الوحدة فلا يكون له ضمير ولا يشعر بالمسؤولية — ان فكرة المسؤولية فكرة صناعية خلقها الاجتماع وليست طبيعية في الفرد من حين خلقه . ولكن هذا الاعتراض لا يكون وجيها الا عند الذين يحسبون الفرد وجد وجوداً مستقلاً وانه اتفق مع امثاله على ما سماه روسو العقد الاجتماعي فخلقوا الجمعية . وهذه الفكرة الاخيرة فكرة تصورية بحتة تخالف نواميس الطبيعة اشد المخالفة . لان الانسان مدني بطبعه وليست الوحدة والانفراد من غرائزه مطلقاً . والشخص الذي يستوحش ويخرج عن الجماعات ويعيش متبتلاً منقطعاً لشخص مختل التوازن العقلي لطفاً وهو حيوان نادر الوجود . لذلك فلا يمكن ان يبنى عليه حكم مطلقاً . اما الانسان الطبيعي فهو مخلوق اجتماعي فيه كل الصفات والقوى اللازمة لتؤهله للحياة مع بني جنسه . وبظهر هذه الصفات والقوى رويداً رويداً على نسبة اشتباكه مع الحياة الاجتماعية واخذه منها بنصيب . وعلى ذلك تكون جرثومة المسؤولية وبذرتها موجودة مستكنة في النفس الانسانية من يوم خلقها ومنتظرة احتكاكها بالعوالم الخارجية وبنظام الجمعية لتظهر ويشعر الفرد بها . لكن هذا الاحتكاك بالذات هو الذي يوجه فكرة المسؤولية وجهتها ويرسم لها الطريق التي تسير فيه فتحكم صاحبها بعد ذلك على نمط معين . وهذا هو السبب في اختلاف فكرة المسؤولية كماً وكيفاً في الشعوب المختلفة والازمان المختلفة . وعلى الاخص فيما يتعلق بتطبيقات هذه الفكرة العملية بل انك تجد في مثل البلاد المستحدثة مدنيتها التي تضرب فيها الفوضى وتجعلك ترى في المدينة الواحدة بل في القرية الواحدة انواعاً شتى من المدنيات المختلفة ميداناً فسيحاً للملاحظة في هذا الباب . فان فكرة المسؤولية تختلف في الافراد انفسهم من جهة كمها وكيفها بشكل غريب . فانت اذا وقفت على باب مسجد من المساجد في احدى مدائن مصر وكلفت نفسك مؤونة محادثة شيخ من اهل الورع الداخلين بيت الله يؤدون له الفريضة وكان هذا الشيخ من اكبر علماء عصره ورأيته يفكر اشياء ويقر

أخرى ويجي بالللائمة على قوم ويرطب لسانهُ بالثناء على قوم غيرهم وهو في كل ذلك يحكي لك عن عقيدة وإيمان · فاذا تركتهُ وتركت المسجد وانحدرت الى حانة نظيف وقابلت بعض المتحللين من اخوان المدنية الاوربية وحادثتهُ في المواضيع التي حادثت فيها صاحبك الشيخ رأيت بينهما بوناً بعيداً رأيت الثاني يذم ما مدح الاول ويمدح ما ندد به· وليس ذلك الا ان صورة الجمعية انطبعت في نفس كل منهما بشكل خاص فكونت فيه وحدات ايمانية خاصة جعلتهُ الشخص الذي رأيت وكونت في نفسهِ فكرة المسؤولية على النحو الذي رأيته· فكأن هذه البذرة الاولى الموجودة في النفس الانسانية بفطرتها المدنية انما يكيف ظهورها ونموها وشكلها العقائد الاجتماعية التي توضع في النفس التي تحوي البذرة في وسطها

بل ان الشكل الذي تأخذهُ فكرة المسؤولية في نفس الفرد يحور تحوراً عظيماً بانتقال الفرد نفسهِ من وسط الى وسط آخر · وكم رأينا من شيوخ كانوا مثال التقوى انطبعت في نفوسهم وحدات الدين الايمانية انطباعاً فلما انتقلوا الى اوربا والى وسط آخر تخلف عقائدهُ عن عقائدهم تداعت في نفوسهم مبادئ ووحدات قديمة وصرت ترى فكرة المسؤولية التي هي مجتمع عقائد كل فرد وعاداته تغيرت تغيراً سمح لهم بمناصرة ما كان في نظرهم من قبل جرماً واثماً

من هذا يظهر واضحاً ان الوسط الاجتماعي هو العنصر الاقوى والمكون الاول لفكرة المسؤولية في النفس الانسانية · وان طبائع الانسان وغرائزهُ الاجتماعية تشكل بالشكل الذي يريدهُ لها الاجتماع مكرهاً صاحبها على اتخاذ هذا الشكل المعين · وان الجرثومة الاولى الموجودة في نفس الفرد لا تعمل بذاتها بل تعمل متأثرة بذلك الوسط ولولاهُ لاضمحلت ونبت فبقي الانسان اشبه الاشياء بالحيوانات التي تكتفي من كل ما في الحياة بالاحتفاظ بالحياة ودفع ما من شأنه ان يلاشيها

محمد حسين هيكل المحامي
دكتور في الحقوق